مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (41) العدد (1)2019
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (41) No. (1) 2019

مصادر الصّورة الفنّيّة في نهج البلاغة

الدّكتور عدنان أحمد*
منتجب عمران**

(تاريخ الإيداع 29 / 5 / 2018. قبل للنشر في 10 / 1 / 2019)

□ ملخّص □

يدرس البحث مصادر الصورة الفنية في نهج البلاغة ، فيحاولُ الوقوفَ على منابعِها ، وأسبابِ خروجها بالشكلِ الذي ظهرت فيه ، ويبرز دورَ القرآن الكريم الجليَّ في رسمِ صورِ النهجِ الفنيّةِ ، ويناقشُ قوةَ الآراءِ التي ترى في الانفتاحِ الثقافيِّ عاملاً رئيساً أو مصدراً بنيت عليه الصورةُ الفنيةُ في النهجِ أو وهنها . كما يظهر أثر كلٍّ من الأحاديث النّبويّة والأدب والبيئة المكانيّة والمجتمع في فكر الإمام عليّ (ع) ، وبالتالي دورها في خلق الصورة الفنيّة في نهج البلاغة .

الكلمات المفتاحيّة : مصادر، الصّورة الفنّيّة، القرآن الكريم، الأدب، المجتمع.

* أستاذ دكتور – قسم اللّغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .
** طالب دراسات عليا (دكتوراه) – قسم اللّغة العربيّة – كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (41) العدد (1)2019
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (41) No. (1) 2019

Sources of image in the Nahjul Balaghah

Dr. Adnan Ahmad*
Montajab Omran*

(Received 29 / 5 / 2018. Accepted 10 / 1 / 2019)

□ ABSTRACT □

The research looks at the Sources of image in the Nahjul Balaghah, then the research tries to stand up on it, and the reasons for its departure in the form in which it appeared. The research seeks to highlight the role of the Al Quran in drawing the artistic image in the approach. It discusses the power of opinions that see cultural openness as a major factor on which the image in the Nahjul Balaghah, or weakness.

The research also shows the impact of prophetic traditions, literature, spatial environment and society in the thought of Imam Ali. and thus its role in creating its artistic image.

key words : Sources, the artistic image, Al Quran , literature, society.

* **Professor , Arabic Department , faculty of Arts and Humanities , Tishreen University, Lattakia , Syria**
** **Postgraduate Student, Arabic Department, faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria**

مقدّمة :

تبرز الصّورة الفنّيّة بوصفها عنصراً رئيساً في أدب العرب شعره ونثره، فمن الإجحافِ جعلُها عنصراً دخيلاً على العمل الأدبي؛ إذ يصعب أن يقوم العمل الأدبيّ من دونها، وفي أدب عرب الجاهليّة ما يثبت ذلك، ليس في شعرهم فقط، وإنّما في نثرهم الّذي اهتمّوا به "اهتماماً ظهر أثره، وعرفت خواصّه، في خطب الخطباء، ورسائل الكتّاب، ولكن ما عرف عن العرب من إهمال التّقييد والتّدوين، لشيوع الأمّيّة فيهم، أضاع علينا معرفة من اهتمّوا اهتماماً جدّيّاً بتدوين البديع"[1]

أهميّة البحث وأهدافه :

تكمن أهميّة البحث في مصادر الصّورة الّتي وردت في نهج البلاغة في محاولةِ تعرّف الغنى الثّقافيّ والفكريّ الّذي حملته تلك الصّور، والكشفِ عن بعض ما تختزنه من معانٍ ودلالاتٍ خبيئةٍ، وكذلك تنوّعِ المكوّناتِ الفكريّةِ والأسس الثّقافيّة والفلسفيّة الّتي حملها مبدع الصّور.

ويقفُ البحثُ على دور القرآن الكريم والأحاديث النّبويّة في رفد الصّورةِ بأسباب القوّةِ عند الاحتجاجِ والتّدليل على أمرٍ ما. ويعطي البحثُ مساحةً لإظهار الآثار المختلفة للبيئةِ المكانيّةِ والمجتمع اللّذين عاش فيهما الإمام عليّ (ع)، والأدبِ الّذي نهل منه، والّذي يُظهر من جانبٍ آخر اهتمام الخلفاء (ر) بالشّعر، نظراً لأهميّته وقيمته في حياةِ النّاسِ في ذلك الوقتِ.

منهج البحث :

يعتمد البحث في دراسته المنهج الوصفيّ التّحليليّ، فيعرض بطريقةٍ موضوعيّة مصادر الصّورة الّتي استلهمها صاحب النّهج في إنتاج صورِهِ، ويتناولُ كلّ مصدرٍ على حدة بالشّرح والتوضيح، ويُظهر الهيئة الّتي جاءت عليها الصّورة الفنّيّة تبعاً لاختلافِ مصادرها، والوظائف الّتي كانت تؤدّيها. من خلال الوقوف على بعض الصور، ومحاولة الغوص في معانيها ودلالاتها المحتملة.

توطئة :

لقد اهتمّ العرب، أوّل ما اهتمّوا، بما رأته أعينهم، وما ألفته طبائعهم وحواسّهم مظاهر الطّبيعة وموجوداتها المتحرّكة والسّاكنة. وفي هذا يلتقي الشاعر الفطن والأديب الحاذق بالأعرابي البدائيّ، أما توظيف موجودات البيئة وإسقاطها على مقاصدهم ومراميهم في القول فيحتاج إلى عقل متدبّر وفطنة شديدة، لذلك فإنّ جودة التصوير كانت تتفاوت بين أديب وآخر تبعاً لمقدرة كلّ واحد على إدراك هذا الوجود، وأوّله البيئة. وليست هذه البيئة إلّا نقطة أوّلى من نقاط استناد العرب إليها في أقوالهم، فإلى جانبها نجد الثّقافة الاجتماعيّة الّتي درج عليها أبناء المجتمع العربيّ، والعرب –بحسب ابن طباطبا–" قد أودعت أشعارها من الأوصاف والتّشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها، وأدركه عيانها، ومرّت به تجاربها، وهم أهل وبر"[2]

---

[1] النثر الفنّيّ في القرن الرابع – زكي مبارك – الجزء الأول – دار الجيل – بيروت – لبنان – دون تاريخ - صـ 65

[2] ابن طباطبا العلويّ ، عيار الشّعر-– تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع – دار العلوم للطباعة والنشر 1985م – الرياض – السعودية صـ 15

يضاف إلى ذلك الثّقافة الفرديّة الّتي تميز كلّ فرد من غيره، وهذه تتفاوت بحسب اجتهاد كلّ واحد ومدى اطّلاعه ورفده نفسَه بشتّى العلوم والثّقافات والقيم والأفكار والمعارف والمواهب[1].

ولا تقتصرُ مصادر الصّورة على ما سبق ذكرُهُ؛ فالقرآن الكريم الّذي حمل رسالةً جديدةً إلى العرب في مرحلة من المراحل كان مادّة خصبة حملها العرب في شعرهم ونثرهم، واتّكؤوا عليها ينهلون منها ما طاب، ويوظّفونه في موضوعاتهم المختلفة؛ إذ أضحى القرآنُ الكريمُ يشكّل جزءاً من ثقافة العرب، وإلى جانب القرآن الكريم المصدرُ الثّاني في التّشريع الإسلاميّ؛ السّنّةُ النّبويّة الشّريفة الّتي ما فتئ العرب يستمدّون منها أقوالهم، فضلاً عن الشّعر نفسه الّذي يعدّ ديوان العربِ، ولا غنى لهم عن الاستعانة به في التّصوير الفنّيّ.

والبحث في مصادر الصّورة الفنّيّة يحتاج إلى قطبين ؛ يمثّلُ القطبَ الأوّلَ مادّة الصّورة أو موادّها ، ويمثّل الثّاني المصوّر – المبدع الّذي يصوغ هذه المادّة صورةً فتكسبها مهارته خصوصيّةً وبهاءً .

إنّ الإبداع يقاس بقدرة المبدع الخياليّة المتميّزة الّتي تسعفه في توظيف ما عاينه في الواقع فيخلق صورة فنّيّة تتجاوز الواقع وتعيد تشكيله على وفق رؤية جديدة[2]؛ فالفنّ كما رآه بعضهم ليس الحياة "كما نعيشها ونحياها، ولكنّه الحياة كما نشاهدها خلال لحظات التّأمل، وقد خُلقت خلقاً جديداً تحت ظلال قوّة ذات فعاليّة جديدة تتمثّل في عمليّة التّذكّر والتّأليف وبعث الحياة وذلك بتنظيمها معاً في نسق عضويّ"[3]

مصادر الصّورة في نهج البلاغة:

1- القرآن الكريم:

ذهب بعض النّقاد والباحثين إلى أنّ الخصائص الفنّيّة الموجودة في القرآن الكريم "توجدُ كذلك في الآثار الأدبيّة التي عاصرتهُ كالأحاديث النّبويّة وخطب الخلفاء والولاة والقوّاد الّذين شهدوا عصر النّبوّة أو جاءوا[4] بعده بقليلٍ ، ففي خطبة الوداع للنّبيّ عليه السّلام وكتب عمر بنِ الخطّاب وخطبِ عليٍّ وزياد والحجّاج روحٌ أدبيّة تقاربُ الرّوحَ السّائدَ في القرآن"[5] .

إنّ ورودَ صورٍ مصدرها القرآن الكريم في جزء لا بأس به من صور نهج البلاغة يستدعي التّوقف عند جملة من الملاحظات : أوّلها الغاية من استلهام القرآن الكريم في هذه الصّور دون غيرها ، والطّريقة الّتي وردت فيها الصّورة ، والهدف الّذي سعت إلى تحقيقيه . ويمكن الزّعم أنّ جملة الملاحظات السّابقة تنطبق على مصادر الصّور الفنّيّة في النّهج عموماً .

ولمّا كان القرآن الكريم مطلق الصّدق ، لا يمكن الرّدّ عليه ، وكانت آياته شواهدَ لا تُدحض فقد اتّكأ عليه الإمام عليّ (ع) في غير قليلٍ من صور النّهجِ . لنقرأ على سبيل المثال جانباً من إحدى خطب الإمام عليّ (ع) يذكّر فيها النّاس بعظمة الله تعالى : "يَعْلَمُ مَسَاْقِطَ اَلْأَوْرَاقِ ، وَخَفِيَّ طَرْفِ اَلْأَحْدَاْقِ"[6] يكنّي الإمام عليّ (ع) عن عظمة الله تعالى وإحاطته وعلمه بكلّ شيء ، يكنّي عن ذلك بعلم الله تعالى بسقوط الأوراق على كثرتها، مستمداً ذلك من قوله تعالى:

---

[1] راجع مصادر ثقافة أبي تمام. د. عبد القادر الربّاعي، الصّورة الفنّيّة في شعر أبي تمام– الطبعة الثانية 1999م – المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت – لبنان - صـ 70-84

[2] د. جابر عصفور، الصّورة الفنّيّة في التّراث النّقديّ والبلاغيّ صـ 14، 309 –310. يُنظر أيضاً د. عبد القادر الرباعيّ ، الصّورة الفنّيّة في شعر أبي تمام صـ 15

[3] اليزابيث درو، الشّعر كيف نفهمه ونتذوق، ترجمة إبراهيم محمّد الشوس ، مكتبة منيمنة بيروت – لبنان، 1961م – صـ 27

[4] هكذا وردت في المصدر

[5] زكي مبارك، النثر الفنّيّ في القرن الرّابع ، ، صـ 54

[6] ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ، المركز الثقافيّ اللبنانيّ، بيروت – لبنان، 46/10

﴿وَمَاْ تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلّا يَعْلَمُهَا﴾[1] . تكتسب الصّورة قوّتها ويبلغ تأثيرها في المتلقّي أوجهُ ، ولاسيّما إذا كانَ المتلقّي مسلماً قد مرّت على مسمعه تلك الآية الكريمة ، ووعاها قلبُه ، وبالتالي يكون وقع الصّورة في الخطبة على المتلقّي صدىً لوقعِ الصّورة نفسها المذكورة في القرآن الكريم .

وفضلاً عمّا سبق ، لم تخلُ الأدعية في نهجِ البلاغةِ من الصّور المستقاة من القرآن الكريم تغلب عليها الصّور الّتي تتناول النّبيّ محمّداً (ص) بالمدح والثّناء والدّعاء ، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر " كُنَّا إِذَا اِحْمَرَّ اَلْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُوْلِ الله فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى اَلْعَدُوِّ مِنْهُ"[2] قد يذهب أحدهم إلى أنّ البأس هو الشّدة، ولكن يبدو أنّ عليّاً (ع) قد عنى به الحربَ ، يدلّ على ذلك قوله تعالى :﴿وَاَلصَّاْبِرِيْنَ فِيْ اَلْبَأْسَاْءِ وَاَلضَّرَّاءِ وَحِيْنَ اَلْبَأْسِ﴾[3] . واحمرار البأس كناية عن الشّدّة الّتي قد يعقبها دماءٌ كثيرةٌ تسيلُ ، وهنا من جانب آخر تعظيم شأن النّبيّ محمّد (ص) وذكر جانب من فضائله وصفاته في أحلك ظرف وهو المعركة .

وأمّا الدّعاء فهو لازمة تتكرّر بعد ذكر الفضائل ، وربما من دونها، نقرأ مثلاً دعاء للإمام عليّ (ع) يعلّم فيه النّاس الصّلاة على النّبيّ (ص) جاء فيه : "اَللّهُمَّ افْسحْ لَهُ مَفْسَحَاً فِي ظِلِّكَ ، وَاجْزِهِ مُضَاْعَفَاتِ الخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ . اللَّهُمَّ وأَعْلِ عَلَى بِنَاءِ البَانِيْنَ بِنَاءَهُ ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ وَأَتْمِمْ لَهُ نُوْرَهُ ،وَأَجْزِهِ مِنْ ابْتِغَائِكَ لَهُ مَقْبُوْلَ الشَّهَادَةِ ، مَرْضِيَّ المَقَالَةِ، ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ وَخُطْبَةٍ فَصْلٍ"[4] .

نجد غيرَ صورة منشؤها القرآن الكريم ، فقوله (اَللّهُمَّ افْسحْ لَهُ مَفْسَحَاً فِي ظِلِّكَ) قد ورد في القرآن الكريم ﴿وَظِلٌّ مَمْدُوْد * وَمَاءٍ مَسْكُوب﴾[5] ، وهي الآية الكريمة الّتي تتحدث عن أصحاب اليمين ، وقوله (وَأَتْمِمْ لَهُ نُوْرَهُ) مصدره قوله تعالى في سورة التحريم ﴿يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُوْرَنَا وَاغْفِرْ لَنَا﴾[6] تُظهر الصّورتان السّابقتان عظيم مكانة النّبيّ (ص) وهما بمنزلة فرصة للدّعاء له (ص) ، وردّ شيء من الشّكر لرسالة الهداية الّتي حملها للبشريّة جمعاء .

2- السنّة النبوية الشريفة :

ذهب بعضهم إلى أنّ المعاني العقلية المتضمّنة في الشّعر والنّثر العربيّين يجريان "مجرى الأدلّة الّتي يستنبطها العقلاء ، والفوائد الّتي يثيرها الحكماء"[7]، ولذا فقد ذهب بعضهم إلى أنّ أكثر تلك المعاني منتزعٌ من أحاديث النّبيّ (ص) والصّحابة وآثار السّلف[8] . وهذه المعاني العقليّة لا تتناقض مع التخييل الّذي تتضمّنه الصّور سواء تلك الّتي ترد ترد في أحاديث النّبيّ (ص) ، أو الّتي تستقي معانيها من السّنّة النّبويّة ، وتظهر بقالب وحلّة جديدَين .

يقول الإمام عليّ (ع) :"أَيُّهَا اَلنَّاسُ الزَّهَاْدَةُ قِصَرُ اَلْأَمَلِ ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ ، وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ المَحَارِمِ ، فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمُ فَلَا يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَكُمْ ، وَلَا تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ ، فَقَدْ أَعْذَرَ الله إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ ، وَكُتُبٍ بَارِزَةِ العُذْرِ وَاضِحَةٍ" [9] .

يدور النّصّ السّابق حول تعريف النّاس بالزهادة ، وقد ذهب ابن أبي الحديد في معرض تعقيبه على قول الإمام عليّ (ع) السّابق إلى أنّ الزّهادة في العرف المشهور هي "الإعراض عن متاع الدّنيا وطيباتها ، لكنّه لمّا كانت الأمور

---

[1] الأنعام - 59
[2] شرح نهج البلاغة 103/19
[3] البقرة – 177 ، يُنظر شرح نهج البلاغة 103/19
[4] شرح نهج البلاغة 110/6
[5] الواقعة 30 - 31
[6] 8
[7] الوليّ محمّد، الصّورة الشّعريّة في الخطاب البلاغيّ والنّقديّ، صـ 97
[8] السّابق – 98
[9] شرح نهج البلاغة 185/6

الثّلاثة طريقاً موطّئةً إلى ذلك أطلق عليه السّلام لفظ الزّهد عليها على وجه المجاز"[1] . ولربّما يحتاج تفسير ابن أبي الحديد إلى بعض التدقيق ، فلو أجرينا مقارنةً بين تعريف ابن أبي الحديد (الإعراض عن متاع الدّنيا وطيّباتها) ، وما جاء في كلام الإمام عليّ (ع) (قِصَرُ اَلْأَمَلِ ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ ، وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ المَحَارِمِ) فإنّنا سنلحظ قصوراً – ربّما– في فهم ابن أبي الحديد لكلام الإمام عليّ عن الزّهادة . إذ يقوم مفهوم الزّهادة ، عند الإمام عليّ ، على ثلاثة أركان ؛ فـ (قِصَرُ اَلْأَمَلِ) يعني أنّ كثرةَ الآمال وتمنية النّفس بالأوهام تُنسي الإنسان واقعهُ ، وتدفعه إلى العيش في عالمٍ خياليّ بعيداً عن الواقع . و (الشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ) تُذكّر المرء بضرورة اليقين أنّ كلّ نعمةٍ تسبَغُ عليه إنّما توجّب عليه شكرَ الله تعالى عليها ، والشّكر يكون بالفعلِ لا بالقولِ فحسب ؛ أي بالإنفاقِ منها وبذلها بالطّريقة الصّحيحة ، و(التَّوَرُّعُ عِنْدَ المَحَارِمِ) يُظهر العفّة والقدرة على كبح جماح النفس عن شهواتها في وقت القدرة على إشباع تلك الرغبات .

أمّا ما ذهب إليه ابن أبي الحديد من أنّ الزّهادة هي الإعراض عن متاع الدّنيا وطيّباتها فإنّه ليس دقيقاً ؛ إذ إنّ الطّيّبات ليست محرّمةً في الأساس ، فقد دعا القرآن الكريم في غيرِ آيةٍ كريمةٍ إلى عدم تحريم الطّيبات الّتي أحلّها الله، من ذلك مثلاً قولُه تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لَا تُحَرِّمُوْا طَيِّبَاْتِ مَاْ أَحَلَّ اللهُ لَكُم﴾[2]. فليس تحريمُ هذهِ الطّيّبات زهداً ، كما أنّ الزّهد لا يكون مع طول الأمل ؛ إذ إنَّ طول الأملِ من شأنه أن يغريَ بالحياةِ ويُنسي الموتَ ، وكذلك لا يتمُّ الزّهد بغير شكرِ النّعم بالبذل منها ؛ لأنّ البذل صورةٌ من صور اليقين بأنّ الرّزق من عند اللهِ ، وأنَّ الصّدقةَ تزيده ولا تنقصهُ، وكذا الزّكاة. ولا يكونُ أيضاً بغير التّورع عن المحارم وعدم الانجرار وراء رغبات النفس الّتي حرّمها الله تعالى .

ومضمونُ قول عليّ (ع) نلحظهُ في غير حديثٍ للنّبيّ محمّد (ص) ، من ذلك قوله عليه الصّلاة والسّلام :"مَا لِي وَلِلدُّنْيَا إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُهَا كَمَثَلِ الرَّاكِبِ رُفِعَتْ لَهُ شَجَرَةٌ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ ، فَقَالَ تَحْتَهَا ، ثُمَّ رَاْحَ وَتَرَكَهَا"[3]. وقوله (ص) :" مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُوْنَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِيْ يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَاْ فِيْ يَدِ غَيْرِهِ"[4].

وينقل ابن أبي الحديد في معرضِ شرحه كلامَ الإمام عليّ (ع) ما سمّاها الآثار الواردةَ في الزّهدِ ، من بينها أحاديثُ نبويّةٌ ، نذكر منها قولَه (ص) :"أَفْلَحَ الزَّاْهِدُ فِيْ الدّنيا ، حَظِيَ بِعِزِّ العَاْجِلَةِ وَبِثَوْبِ الآخِرَةِ "[5] وقولَه (ص) :"مَنْ أَصْبَحَتِ الدّنيا هَمَّهُ وَسَدَمَهُ ، نَزَعَ اللهُ الغِنَى مِنْ قَلْبِهِ ، وَصَيَّرَ الفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدّنيا إِلّا مَا كُتِبَ لَهُ ، وَمَنْ أَصْبَحَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ وَسَدَمَهُ، نَزَعَ اللهُ الفَقْرَ عَنْ قَلْبِهِ ، وَصَيَّرَ الغِنَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَأَتَتْهُ الدّنيا وَهِيَ رَاغِمَةٌ "[6]

3- الأدب :

إنَّ الفصاحة الّتي أثرت عن صاحب النّهج تكشف لنا في جانبٍ آخر عن تذوّقه الشّعرَ وميله إليه ، يستدلُّ بأبياتٍ منه على هذه الحادثةِ أو تلك ؛ ففضلاً عن الرونق الفنّيّ الّذي يزداد ألقاً حينما يُدعَم الكلام النّثريّ الفصيح بالشّعر فإنّ المعنى يبدو آكدَ في أذهان متلقيّ الخطبة . ولربّما يرجع السّبب في الاعتماد على أبيات من الشّعر إلى الذّوق العربيّ الّذي يستسيغ سماع الشّعر وتذوّقَه ، وإلى الذّاكرة الجمعيّة الّذي استطاع الشّعر أن يوجدها نتيجةَ حالةٍ تراكميّةٍ خلال فترةٍ زمنيّةٍ طويلةٍ ، وبالتّالي فإنّ الرّكون إلى تلك الأبيات يشدّ انتباه المتلقّي إلى مضمون الخطبة وفهم فحواها ، وقد بالَغَ بعضهم إلى حدّ الدّعوة إلى وجوب الاعتماد على صور الشّعر العربيّ القديم بوصفه مصدراً من مصادر

---

[1] ينظر السّابق 185/6
[2] المائدة 87
[3] أبو جعفر محمّد بن يعقوب الكلينيّ ، أصول الكافي، المتوفّى 328هـ - منشورات مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات – بيروت – لبنان – الطّبعة الأولى – 1426هـ - 2005 م – صـ 405
[4] السّابق – صـ 407
[5] شرح نهج البلاغة ، 186/6
[6] السّابق ، 186/6

الصّورة [1]، فمن ذلك قول عليّ (ع) متضجّراً من تثاقل الجنود عن الجهاد ومخالفتهم إيّاه في الرّأي : "مَا هِيَ إِلَّا الكُوْفَةُ أَقْبِضُهَا ، وَأَبْسِطُهَا ، إِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْتِ تَهُبُّ أَعَاصِيْرُكِ فَقَبَّحَكِ اللهُ ".[2] وتمثّلَ بقول الشّاعر:

لَعَمْرُ أَبِيْكَ الخَيْرُ يَا عَمْرُو إِنَّنِي عَلَى وَضَرٍ مِنْ ذَا الإِنَاءِ قَلِيْلِ[3]

فنجد تمثّله ببيتٍ شّعريّ لشاعر لم يسمّه قد جاء لتوضيح صورة غضبه (ع) من القاعدين عن الجهاد في الكوفة ، فكان الدّعاء على الكوفة ، ولكنّ المقصود هم المتخاذلون من أهلها . ولو تابعنا في الخطبة نفسها نجده (ع) يقول : "اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُّوْنِي ، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُوْنِيْ ، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْرَاً مِنْهُم ، وَأَبْدِلْهُمْ بِيْ شَرَّاً مِنِّي ! اللَّهُمَّ مِثْ قُلُوْبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ المِلْحُ فِي الْمَاءِ ، أَمَا وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِيْ بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسِ بنِ غَنْمٍ:

هُنَالِكَ لَوْ دَعَوْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الحَمِيْمِ "[4]

فهذا البيتُ الشّعريّ يعبّر عن طاعةِ بني فراس بن غنم ، فيكشفُ بذلك عصيان جيش عليّ أو معظمه ، وهو ما جعلَ عليّاً يتمنّى أن يستبدلَ بهذا الجيش على كثرته ألفاً من أولئك . كما نجد التّعنيف قد بلغ ذروته في نهاية الخطبة ، تجلّى ذلك التّعنيف في الدّعاء عليهم والشّكوى إلى الله تعالى منهم وتمنّي مفارقتهم ، ثمّ تمثّل ببيت شعرٍ منسوبٍ إلى أبي جُنْدَب الهذليّ ، أراد الإمام عليّ (ع) من خلاله تمثّله أن يُظهر قعودهم عن نصرة خليفتهم ، مُظهراً الفرق بينهم وبين قوم من بني فراس بن غنْم ، تبدو صفات هؤلاء القوم زاخرةً بالشّجاعة والشّهامة ونصرة الحقّ .

وفي موضع آخر نجد التّقريع واللّوم موضوعاً للصّورة أيضاً . يقول الإمام عليّ (ع) بعد حادثة التّحكيم: "أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيْقِ العَالِمِ المُجَرِّبِ تُوْرِثُ الحَسْرَةَ ، وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ، وَقَدْ كُنْتُ أمرتُكُمْ فِيْ هَذِهِ الحُكُوْمَةِ أمري ، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُوْنَ رَأْيِي ؛ لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيْرِ أمر ! فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ المُخَالِفِيْنَ الجُفَاةِ ، وَالمُنَابِذِيْنَ العُصَاةِ ، حتّى اِرْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ :

أمرتُكُمُ أمريْ بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى فَلَمْ تَسْتَبِيْنُوا النُّصْحَ إِلّا ضُحَى الغَدِ"[5]

وفي الخبر أنّ عبد الله أخا دريد ابن الصّمّة غزا بني جُشم وبني نصر ابنَي معاوية بن بكر بن هوازن، فغنم منهم مالاً ورزقاً، فحذّره دريد من البقاء، ونصحه قائلاً :"إنّ غَطَفان ليست بغافلة عنّا"، إلّا أنّه أصرّ على ألّا يغادر حتّى يقسم، وبينا هم كذلك إذ أقبلت عبس وفزارة وأشجع، وتلاحقوا بالمنعرج في مكان اسمه اللّوى، فاقتتلوا، فقُتل عبد الله بن الصّمّة، وجُرح دريدٌ، ولولا أنّهم ظنّوه ميّتاً لأجهزوا عليه. بعد ذلك تذكر كتب الأدب أنّ دريداً يسير مثخناً بجراحه إلى أن يجد من ينقذه، فيكتب بعد ذلك رثاءً لا يخلو من العتاب وإبداء الحسرة[6].

فالشّاعر قد نصح قومه ، ولكنّهم لم يطيعوهُ ، وعندما تبيّن لهم صدقَ نصحه كان ما حدثَ قد حدث ، ولم يعُد للنصيحةِ جدوى . وجيشُ عليّ (ع) ما زال في ظلمة عناده ، وعندما يستبين الرّشدَ في ضحى غدهِ لن يكونَ أحسنَ حالاً من قوم الشّاعر ، ولذلك صحّ فيهم قول الشاعر ابن الصّمّة[7].

ونلحظ فيما وردَ من أمثلة أنّ الإمام عليّ (ع) قد مثّل لبعض الصّور بشعرٍ لشعراءَ لم يسمّهم وأنّ معظم تلك الصّور كانت في تعنيف المقصّرين من رعيّته في الجهاد وقعودهم دونه .

---

[1] **د. جابر، الصّورة الفنّيّة في التّراث النّقديّ والبلاغيّ عند العرب، 121-122**
[2] **شرح نهج البلاغة 280/1**
[3] **الوضر: بقيّة الدّسم في الإناء**
[4] **السّابق 280/1- 281**
[5] **شرح نهج البلاغة 162/2**
[6] **يُنظر السّابق 163/2**
[7] **إلى غيرها من المواضع الّتي تجري مجرى الشواهد السّابقة . ينظر على سبيل المثال 147/2**

4- الطّبيعة :

إنّ اتّساع المساحة الجغرافيّة للمنطقة العربيّة ، وتنوّع تضاريسها ، وتعدّد أقاليمها كان له أثره في تنوّع الطّباع وأنماط التّفكير ، وانعكس ذلك بدوره تنوّعاً في تلوين البيان والتّعبير ، وشكّل حافزاً لإبراز جمال الموجودات . وهذا لم يُنسِ بعض الدّارسين لفت الانتباه إلى أنّ للإنسان دوراً إيجابياً في الطّبيعة ، سواءٌ حينما يعتني بها ، وينسّق شجرها ، ويرتّبها ، ويحميها من الآفات أو حينما "يبثّ فيها الإلهام أو يتلقّاه ، ويضفي عليها السّحر والعمق ، ويهمي فيها بالفتنة والمحبّة ، ويبرز ما فيها من محاسنَ ظاهرةٍ وباطنةٍ حقيقةٍ ومتخيلةٍ" [1]

وقد شكّلتِ الطّبيعة مادّة خصبة للأدب العربيّ على مرّ العصور، وليس عجيباً بعد ما تقدّم أن نجد في نهج البلاغة كثيراً من الصّور الفنّيّة الّتي رأت في البيئة مصدراً وملهماً لها ، لكنّ الملاحظ أنّ صور النّهج ذاتَ المصدر البيئيّ – إن جاز التّعبير– اتّخذت منحيَين يمكن الوقوف عندهما قليلاً.

المنحى الأوّل : الوصف الواقعي وهو أحد جوانب التّصوير الفنّيّ ، ويتمثّل في نقل صورة الموصوف بدقّة علميّة دون إضفاء الجانب الخياليّ عليها ، وهو ما يسمّى عند النّقّاد (محاكاة الشّيء نفسَه)[2] ، أو الصّورة الوصفيّة الّتي " تنقل العالم الخارجي لتعكس في خيال المتلقّي مشاهده المحسوسة إلى الدّرجة الّتي تجعل المتلقّي يشعر أنّه في حضرة المشهد نفسه ويعاينه" [3] وهذا الاصطلاح نجده عند كلّ من قدامة بن جعفر[4] وأبي هلال العسكريّ[5] والآمديّ[6] وابن رشيق الّذي رأى أنّ أحسن الوصف "ما نُعِتَ به الشّيء حتّى يكاد يمثّله عياناً للسّامع"[7] . وأمثله ذلك في نهج البلاغة كثيرة ، منها على سبيل المثال قوله (ع) في وصف الجرادة "وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِيْ اَلْجَرَادَةِ إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ ، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ ، وَجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ القَوِيَّ ، وَنَابَيْنِ .... لَا يَكُوْنُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً"[8]

يظهر لنا كم قدّم الإمام عليّ (ع) وصفاً دقيقاً لخلق الجرادة بكلّ ما فيها من تفاصيل قاصداً من وراء ذلك إظهار قدرة الله تعالى وعجيب صنعته في خلقه لينفذ (ع) من خلال ما قدّمه إلى دعوة خفيّة إلى عباد الله تعالى[9].

المنحى الثّاني : الوصف الخياليّ أو ما يسمى محاكاة الشّيء في غيره[10] ، وهو على نقيض المنحى الأوّل من حيث آليّة عمله القائمة على تقديم المعنى بصورة مجازيّة خياليّة ، وإليه تنتمي الصّور البيانيّة من استعارة وتشبيه وكناية.

وما يميز هذا النوع من الوصف اتّساع مجال التّعبير فيه وامتداده أفقيّاً وشاقوليّاً على نقيض الوصف الواقعيّ الّذي تضيق فيه العبارة وتشحّ الجمل والألفاظ الدّالة عليه إلى حدٍّ ما .

---

[1] د. عبد الكريم اليافيّ، دراسات فنّيّة في الأدب العربيّ ، صـ 533
[2] د. جابر عصفور، الصّورة الفنّيّة في التّراث النّقديّ والبلاغيّ عند العرب، صـ 301
[3] المصدر السّابق ، صـ 365 - 366
[4] قدامة بن جعفر، نقد الشّعر ، ، تح : س . أ . بونيباكر ، مطبعة بريل ، لندن ، 1956 ، صـ 62
[5] يُنظر أبو هلال العسكريّ ، كتاب الصناعتين ، تح محمّد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي البجاوي ، عيسى الحلبيّ ، القاهرة ، 1952، صـ 128-129
[6] الآمدي، الموازنة بين الطّائيّين – الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتريّ – تح السّيّد أحمد صقر – دار المعارف – القاهرة – 1965م 299/2
[7] ابن رشيق القيروانيّ، العمدة في صناعة الشّعر ونقده ، تح محمّد محيي الدّين عبد الحميد – المكتبة التجاريّة – القاهرة – 1955 م ، 226/2
[8] 52/13
[9] ولم يقتصر الوصف الواقعيّ على الجرادة ، وإنّما نجد الوصفَ الواقعيّ لغيرِ حيوانٍ في مواضع كثيرة في النّهج .
[10] د. جابر عصفور، الصّورة الفنّيّة في التراث البلاغيّ والنّقديّ، صـ 301

من ذلك قول الإمام عليّ (ع) يصف بعث الله تعالى النّبيّ محمّد (ص) "بِالدّين المَشْهُوْرِ وَالعِلْمِ المَأْثُوْرِ .. وَالنُّوْرِ السَّاْطِعِ وَالضِّيَاْءِ اللَّامِعِ "[1] . إذ يريد الإمام عليّ (ع) بـ (النّور – الضّياء) نورَ الحقّ وضياء الهداية الّذي أزال بهما ظلمة الباطل ودياجي الضّلال ، فأتى بالمعنى الحقيقيّ بصورة متخيّلة تتوسّل إلى شدّ السّامع إليها كما يشدُّ ضياء الحقّ المتخبّط في ظلمة الباطل ، فيهتدي ويرعوي إلى الطّريق القويم .

ومثله كذلك قوله في الخطبة ذاتها واصفاً حال النّاس وقت بعث النّبيّ (ص) :".... وَالنَّاْسُ فِيْ فِتَنٍ اِنْجَذَمَ فِيْهَا حَبْلُ الدّين وَتَزَعْزَعَتْ سَوَاْرِيْ اليَقِيْنِ ... خُذِلَ الإِيْمَاْنُ ، فَانْهَاْرَتْ دَعَاْئِمُهُ وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ وَعَفَتْ شُرُكُهُ .... فِيْ فِتَنٍ دَاْسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا ، وَوَطَأَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا"[2].

تتدافع الصّور في هذا المقبوسِ وراء بعضها ، فتتناول مشهدَين هما الفتنُ والإيمان وقت وقوع الفتن ؛ يجد المتلقّي نفسه أمام عناصر الطّبيعة وليس أمام حديث آخر لولا ذكر كلمات من مثل : (الفتن–الإيمان – الدّين – اليقين) ، ولولا سياق الخطبة الّذي يمثّل قرينة المعنى الحقيقيّ ؛ ففي الفتن : قُطعَ حبل الدّين الموصول ، وتداعتْ أعلام اليقين المرفوعة على سوارٍ باسقةٍ ، ثمّ ما لبثت هذه الفتن أن صارت إبلاً وبقراً وحشيّاً تمشي على غير هداية، تدوس كلّ ما يعترض طريقها. وأمّا الإيمان فهو الطّرف الثّاني المستهدَف من الفتن ؛ إذ راحت أركانه تتهاوى حتّى لم تعد معالمه واضحة ، وحتّى قاصده سيُضلُّ طريقَه الّتي امّحت لشدّة ما بالغت الفتنُ في إيذائه وتغيير ملامحه ، وكأنّ المشهد كان يحتاج إلى طرفين حتّى يكتمل ، فتنٌ مقابل إيمان ، شرٌّ مقابل خيرٍ، ظلمةٌ مقابل نورٍ ، ليرسم لنا في نهاية المطاف صورة الصّراع الأزليّ بين الحقّ والباطل .

وفيما يأتي مصادر الطّبيعة الّتي اعتمدَتْها الصّور الفنّيّة في نهج البلاغة :

أوّلاً : <u>التّضاريس</u> :

كانت ترد التّضاريس في الصّور أحياناً على أنّها غاية في ذاتها ، يصفُ فيها الإمام عليّ (ع) مشهداً من المشاهد ، بينما كانت في أحيان أخرى وسيلة لإيصال رسالة ما وبلوغ هدف مُرام ؛ فحينما ذكر الإمام عليّ (ع) خلق الله تعالى الأرض ، فصّل في ذكر هذا المشهد، وقدّمه للمخاطَب بوصف وتفصيل دقيقَين"[3] إلى الدّرجة الّتي تجعل المتلقّي يشعر أنّه في حضرة المشهد نفسه ويعاينه"[4].

وفي مقابلِ ذلك نجد أنّ الاعتماد على الطّبيعة مصدراً في صور النّهج كانت في جوانب أخرى وظيفةٌ متمثّلةٌ بتوظيف تلك الصّور في توضيح فكرة ما، سعياً إلى ترسيخها في النفوس ، من ذلك قول الإمام عليّ (ع) يصف آل بيت رسول الله (ص) :"هُمْ ... كُهُوْفُ كُتُبِهِ ، وَجِبَاْلُ دِيْنِهِ"[5]. يجعل الإمام عليّ (ع) من آل بيت النّبيّ (ص) كهوفاً تحتوي كتبَه (ص) . إنَّ الكهفَ حصنٌ حصينٌ يُلتجأ إليه وقت الشّدّة ، لما يتميّز من قدرةٍ على الحماية من الأخطارِ المختلفةِ ، والتواري عن الأنظارِ ، فضلاً عن كونه ملجأً الإنسانِ على اختلافِ الأزمانِ من الحرّ والقرّ . وكذا الجبالُ ، وما تحمله من معاني الرّسوخ والصّلابة والثّبات والشّموخِ والرّفعة . تلك المعاني الثّابتة في أذهان النّاسِ هي الّتي توسّل إليها الإمام عليّ (ع) حينما جعلَ آل بيت النّبيّ (ص) كهوفاً أودعها النّبيّ (ص) كتبهُ . والكتب هنا ما أنزله الله تعالى على رسله من كتبٍ وصحفٍ كالقرآن الكريم والإنجيل والتوراة وصحف إبراهيم (ع) وغيرها ؛ أي يظهر مدى

---

[1] **شرح نهج البلاغة ، 117/1**
[2] **السّابق ، 117/1**
[3] **ينظر السّابق 41/11**
[4] **د. جابر، الصّورة الفنّيّة في التّراث النّقديّ والبلاغيّ عند العرب صـ 366**
[5] **شرح نهج البلاغة 119/1**

إطْلاعِهِ (ص) إيّاهم على علمه ، واستيعابَهم إيّاها وفهمَهم لها أيّما فهمٍ . كما أنّهم لا يتزحزحون عن الدّين كما الجبالُ ثابتةَ الأوتاد في الأرض .

كما تحضُرُ التّضاريس في صور النّهج بوظيفة أخرى جديدة ، تمثلت في تسخير تلك التّضاريس في الوعظ والإرشاد إلى فعل أمر محمود وتجنّب آخر مذموم . والملاحظ من تتبّع هذا النّوع من الصّور أنّها وُظِّفت في جانبين من حيث الطّرف المتلقّي :

فقد يتوجّه الإمام عليّ (ع) بالوعظِ إلى فردٍ فقط ، مثال ذلك الكلام الّذي وعظ به الإمام عليّ (ع) ابنه قبل بدء المعركة حينما قال له :"تَزُوْلُ الجِبَالُ وَلَاْ تَزُلْ .... تِدْ فِيْ الْأَرْضِ قَدَمَكَ"[1] فاستعان بالجبالِ وما استقرّ في الأذهان عنها من معنى الثّبات الّذي لا يمكن لقوّةٍ أنَ تؤثّر فيه ، واستعارها ليُظهر لابنه الدّرجة الّتي يكون فيها الثّبات ؛ إذ لو استبدلنا بالصّورة كلاماً إنشائيّاً من قِبَل (اثبتْ في المعركة) لَما وجدنا لها الوقع والتأثير الّذي نجده في استعارة الجبال لمعنى الثّبات في أرض المعركة ، وكذا الأمر في (تِدْ فِيْ الْأَرْضِ قَدَمَكَ) دعاهُ إلى أن يجعل قدمه وتداً ثابتاً في الأرض لا يمكن إزاحته بسهولة أو ربّما تستحيل إزاحته ؛ إذ إنّ الوتد معروفٌ للمتلقّين بوصفه أداة تثبيتٍ ، تنغرسُ في الأرضِ إلى الحدّ الّذي تطمئنّ فيه النّفس للثّبات وعدم التأثّر بعواملَ مختلفة من شأنها أن تقتلعه أو حتّى تزحزحه عن موضعه ، فضلاً عمّا يستذكره القارئ حينما يقرأ الفعل (تِدْ) في قوله تعالى :﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالجِبَالْ أَوْتَادًا﴾[2] ناهيك عن القوّة الّتي تستشفُّ من مجيء الفعل بصيغة الأمر.

وقد يكون الوعظ موجّهاً إلى جماعة بأسرها ، وهذا كثيرٌ شائعٌ في خطبِ نهج البلاغةِ ، ومثالها ما جاء من كلام الإمام عليّ (ع) يحذّر فيه النّاس من الوقوع في الفتن "أَيُّهَا النَّاسُ شُقُّوْا أَمْوَاجَ الفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ"[3] . ولا يختلف وعظ الجماعة عن وعظ الفرد من حيثُ استخدامُ التّضاريس موضوعاً للصّورة بغية الوعظ والإرشاد ، إلّا من حيث توجيهُ الكلام لعامّة النّاس – كما ذكرت سابقاً – . إذن الملاحَظ هنا بداية توجيه الوعظ إلى عامة النّاس ، وليس للمسلمين فقط ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الفتن لا تستثني فئة من النّاس ، ثمّ استعار الأمواج للفتن ، واستعار السّفن للنّجاة منها ، ذلك أنّ السّفن هي الّتي تشقّ الأمواج ، وتتجاوز عوائقها في مختلف الظّروف المناخيّة لتوصل راكبيها إلى برّ الأمان.

ثانياً: الظّواهر الطّبيعيّة والمظاهر الكونيّة :

لقد كانت مظاهر الطّبيعة وظواهرها الكونيّة في النّهج ميداناً لنقل العلوم المختلفة ، والتّعريف بما غَمُضَ من حقائق ومواقف تستوجب إطلاع المتلقي عليها لتستقرّ في ذهنه بعد أن يفهمها . نجد أنّ الإمام عليّ (ع) يحذّر من تعلّم النّجوم ، لا بل يخوّف منه إلى حدّ جعل متعلّمها كافراً في النار ؛ فقد كَثُر العمل في السّحر والعرافة والشّعوذة، وهذه الأعمال حاربها الإسلام ، لما فيها من ابتعادٍ عن عبادةِ اللهِ تعالى ، وإضعافِ إيمان المرءِ بخالقه ، وإغراقه في الأوهامِ والضّلال. وقد استثنى من ذلك علمَ النّجوم الّذي يفيد منه المسافرون في سفرهم برّاً وبحراً ، يقول (ع) :"أَيُّهَا النَّاسُ ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمُ النُّجُوْمِ إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِيْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الكَهَانَةِ ؛ المُنَجِّمُ كَالكَاهِنِ ، وَالكَاهِنُ كالسَّاحِرِ ، وَالسَّاحِرُ كَالكَافِرِ ، وَالكَافِرُ فِيْ النَّارِ"[4] . نستشفّ ممّا سبق معرفةَ الإمام عليّ (ع) بعلم النّجوم؛ فهو يدعو إلى ما له به علم ، ويظهر من جانب آخر خبرة العرب ومعرفتهم القديمة بهذا العلم ، يرى أبو نصر الفارابيّ أنّ علم

[1] شرح نهج البلاغة 204/1
[2] النبأ 6 - 7
[3] شرح نهج البلاغة 181/1 ، يُنظر مثله 45/13
[4] شرح نهج البلاغة 160/6

النّجوم علمان "أحدهما علم أحكام النّجوم : وهو علم دلالات الكواكب على ما سيحدث في المستقبل .. والثّاني علم النّجوم التّعليميّ : وهو الّذي يعدُّ في العلوم وفي التّعاليم"[1].

فالعلم الأوّل مرتبط بما يمكن للإنسان أن يُنذر من وقوع أمر ما ، كتعبير الرّؤيا والزّجر[2] والعرافة وما إلى ذلك. وهذا العلم هو ما حذّر منه الإمام عليّ (ع) ، وقد فصّل في توضيح مخاطر هذا النّوع ، فلم يقل – على سبيل المثال – (المنجّم في النّار) بشكلٍ مباشرٍ ، وإنّما لتفهيم المتلقّي آنذاك مآلَ المنجّم ، وإقناعه ببطلان التنجيم ، تدرّج في التشبيه والوصف بدءاً من (المنجّم كالكاهن) وصولاً إلى (الكافر في النّار) .أمّا العلم الثّاني ، وهو ما سمّاه الفارابي بعلم النّجوم التّعليميّ الّذي يبحث في شكلّ الأجرام السّماويّة وحركتها وما يطرأ عليها من خسوف أو كسوف ، فهذا لم يحذّر منه الإمام عليّ (ع) بل دعا إليه ودلّ عليه .

ويحفل نهج البلاغة بالصّور البيانيّة الّتي وظّف فيها الإمام عليّ (ع) مظاهر الطّبيعة والظّواهر الكونيّة من أجل تعلّم العلوم [3]، وشرح ما خفي من أمور[4].

ومن جانبٍ آخر نجدُ في استعارة مظاهر الطّبيعة نجد مراعاةً لحقائق الأشياء ومطابقتها للمنطق العقليّ المتعارف عليه بين البشر .

نقرأ مثلاً هذا القول من الخطبة الثّانية والسّتّين ، وتتحدث عن الدّنيا "فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِيْ العُقُوْلِ كَفَيْءِ الظِّلِّ . بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغَاً حَتَّى قَلَصَ ، وَزَائِدَاً حَتَّى نَقَصَ"[5] ؛ إذ يذكر زهد العاقل في الدّنيا ، وعدم اغتراره بما يراه من زخرفها وزينتها ، ولتوضيح صورة زهد العاقل في الدّنيا طابَقَ الإمام عليّ (ع) في تشبيهه بين صورة الزّهد في الدّنيا ومنطق الطّبيعة في إسباغ الفيء ثمّ تقلّصه . فامتداد لذّات الدّنيا ومتعاها يعقبه – لا محالةَ – انتهاءُ تلك اللّذات والمتاع وزوالهما كما الفيء الّذي يعقب امتداده تقلّصٌ ونقصانٌ .

ثالثاً : مستلزمات السّلم والحرب :

لا تترك صور النّهج جانباً من الحياة البيئيّة إلّا يكون لها نصيب وافٍ منه ، لقد عرف العرب جانبين من الحياة لا ثالث لهما ؛ السّلم والحرب ، ولقد كان لكلّ جانب أدواته ومستلزماته ؛ ففي الحرب الصّوارم والأسنّة والرّماح والدّروع وغيرُها ممّا يحتاجه المقاتل . وفي السّلم البيع والشّراء والسّفر والتّرحال وما إلى ذلك . وكلّها أو معظمها وردت في صور النّهج بوصفها حاملاً لموضوعٍ معيّن، يرتجي من خلاله صاحبُ النّهج غايةً ما ؛ فقد يتناول موضوعاً يحتاج إلى تبيانه وإيضاح مراميه ، نظراً لأهميّته وضرورة كشف ما غمض في ذهن متلقّي الخطبة.

يجهد الإمام ، وهو خليفة المسلمين، في تسيير شؤون الرّعيّة بكلّ ما فيها من أمور دقيقة وأخرى عظيمة ، ويرسم الخطط ويشرف على تنفيذها ، ويسعى إلى تطبيقها وأخذ المقصّرين بالحزم بعد الإعذار والإنذار ، والمجدّين بالحسنى والثّناء والمكافأة تشجيعاً للاستمرار في ذلك ، وتحفيزاً للمقصّرين على حذو أفعالهم ، ولا يترك الإمام عليّ (ع) منفذاً يمكّن المقصّرين من تسويغ أفعالهم ، فيعمل على الوعظ والتّوجيه والإرشاد ، ومن ذلك تذكيره النّاس بقرب الآجال وضرورة الإسراع في فعل الخير قبل فوات الأوان ، إذ يقول : فَاتَّقُوْا اللهَ عِبَادَ اللهِ ، وَبَادِرُوْا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ، وَابْتَاعُوْا

---

[1] ينظر أبو نصر الفارابيّ، إحصاء العلوم ، قدّم له وشرحه وبوّبه الدّكتور عليّ بو ملحم ، دار ومكتبة الهلال – الطّبعة الأولى ، بيروت – لبنان، 1996م. صـ 57

[2] زجر الطّير ثمّ التّفاؤل إن طار إلى اليمين ، والتشاؤم إن طار إلى اليسار.

[3] شرح نهج البلاغة 120/5

[4] يُنظر مثلاً 117/1، 263، و114/5، و110/6، 197، 202، و45/13 .

[5] السّابق 110/5 ، وانظر 147/9 في خَلق الخفّاش .

مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُوْلُ عَنْكُمْ وَتَرَحَّلُوْا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ"[1]. بادروا آجالكم بأعمالكم أي سابقوها وعاجلوها، وابتاعوا الحياة الباقية في الآخرة بالدّنيا الزّائلة ، وهنا يبدو البيع والشّراء حاضراً في خطبة الوعظ هذه ، وأسهلُ ما يفهمه المرء ولاسيّما إن كان محبّاً المال والنعيم هو التّجارة ، ولذا فقد خوطب النّاس بما يسهل عليهم فهمه في شؤون حياتهم المعيشيّة.

إنّ العملَ والسّعي فطريّ عند الإنسان ، صحيحٌ أنّه أخذ شكلاً ومفهوماً جديدين مع تقدّم العصور ، إلّا أنّه موجودٌ مع وجود الإنسان على وجه الأرض . إنّ العمل الّذي يدعو إليه الإمام عليّ (ع) في هذا الجزءِ من الخطبةِ يتمثّلُ في سلسلة خطواتٍ يمتلك المرء فيها زمام المبادرةِ والعملِ الدّؤوب ، ولا ينتظر تكليفاً من أحدٍ ، أو شعوراً بدنوِّ الأجلِ ، فيظهر وكأنّهُ مدفوعٌ إلى فعلِ أمرٍ يكرهه ، ولا يعتقده يقيناً ، ولذا فإنّ الاتّعاظ بالموتِ وجعله نُصب الأعين هو بمنزلة بوصلةٍ تقي الإنسان من الانحراف أو الخطأ والتّقصيرِ .

كما أنَّ عمليّة البيع والشّراء كانت معادلاً فنّيّاً لفعل الخير وترك فعل الشّرّ ، فالبيع والشّراء ولاسيّما عند التّاجر السّاعي وراء الكسب غير المحدود يدفعانه إلى حُسن اختيار البضاعة المشتراةِ من حيث جودتُها ، وقدرتها على تحقيقِ ربحٍ كبيرٍ وقتَ بيعها لاحقاً ، في مقابل محاولةِ ذلك التّاجر نفسه التّخلّص من البضاعة الرّديئة بأية حيلةٍ ، وبيعها لمن لا يُحسن التّجارة .

إنّ إلباس القضية الفكريّة المعنويّة المتمثّلة في وعظ الإنسان ، وتعريفه بما له وما عليه في حياته من سلوكيّاتٍ وأفكارٍ ثوبَ المظاهر الحسّيّة المتمثّلة في التجارة بما فيها من بيعٍ وشراءٍ ترسّخ الفهمَ والوعيَ لديه ، فيلتقط أوجه الشّبه بين الأمرين ، ويشرع بالدّخول في تلك العمليّة التّجاريّة سعياً منه إلى ربح الآخرة ، وبيع ما لديه من بضاعةٍ مزجاةٍ في الدّنيا .

وكذا الأمر في (تَرَحَّلُوْا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ) ، يظهر لنا عنصرٌ آخر يألفه العرب آنذاك في بيئتهم ألا وهو الارتحال والتّنقّل عبر الصّحاري والقفار ، غير أنّه ارتحال من نوع آخر، هو سفر نحو الدّار الآخرة وهو سفرٌ واجبٌ (جُدَّ بِكُمْ) ، فالله تعالى حثّهم على الرّحيل من حيث إنّه قدّر عليهم ذلك .

رابعاً – الحيوان والنّبات : أكثَرَ الإمام عليّ (ع) من توظيف الحيوان في صور نهج البلاغة ، ولا يمكنُ إغفال أهمّيّة الحيوان في حياة الإنسان العربيّ آنذاك ، فهو عمادُها ، ومن المحال الاستغناء عنه ، سواء في التّنقّل والارتحال أم في المأكلِ والمشرب والملبس ، أو في الحروب وخوض المعارك ، أو حتّى في الحديث عن معايشة ضواريه ، كما في ظاهرة الصعلكة، ولذا فإنّ المتتبّع النّهجَ يجد عشرات أنواع الحيوان الّتي ورد ذكرها بين تضاعيفه أبرزها : الخيل والإبل والنّاقة السّبع والضّبع والذّئب والثّور والعنكبوت والخفّاش والطّاووس والنّحلة والنّملة والجرادة والماعز والضّبّ والطّير... إلى غيرها ممّا عجّت به خطب النّهج وصوره .

أمّا النّبات فكان على درجة أقلّ ممّا وجدناه في الحيوان ، ولربّما يعود السّبب في ذلك إلى عواملَ أبرزها البيئة الّتي نشأ فيها الإمام عليّ ، وهي – في معظمها – بيئة صحراويّة قليلة النّبات باستثناء بعض الواحات الخضراء ، وفيما عدا ذلك لم يأنس العربيّ سوى بالنّخيل أو بعض النّباتات الشّوكيّة هنا وهناك .

ومهما يكن من أمر فإنَّ إيراد هذه الصّنوف أو تلك من الحيوان والنّبات قد كان له أغراضٌ شبيهةٌ بما وجدناه فيما سبق من صنوف البيئة المختلفة ، فحين يستدعي المقامُ تبسيط دقائق الأمور وتبصير الرّعيّة بالحقائق ، يُستعار لها صنف أو أكثر من الحيوان يكون مفتاحاً للإبانة عمّا استغلق أو بَعُدَ من الأفكارِ ، من ذلك ما جاء في إحدى خطب الإمام عليّ (ع) أتى فيها على ذكر الخطايا والتّقوى :"أَلَا وَإِنَّ الخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا ، وَخَلَعَتْ لُجُمَهَا ،

[1] **شرح نهج البلاغة 114/5 ، يُنظر مثلها 181/1، 73/2 ، وانظر أيضاً فيما يخصّ اللّباس 132/5، و195/6 .**

فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ ، أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا ، وَأُعْطُوْا أَزِمَّتَهَا فَأَوْرَدَتْهُمُ الجَنَّةَ"[1] . الخطايا هي خيول صعبة الرّكوب ، تشمس براكبها فتطرحه أرضاً . وفي خلعها لجمها إمعانٌ في التمرّدِ وإظهار الرّغبة الشّديدة في الانفلات من أيّة ضوابطَ قد تمنعها من تحقيق غاياتها العدوانيّة ، فيكون اقتيادها صاحبها إلى النّار حتميّ لا مجال لدفعه . يُظهر التّشبيه مخاطر الخطايا ، وينطوي ، في الوقت نفسه ، على تحذير منها من الوقوع فيها .

وعلى النّقيض من ذلك نجد التّقوى مطايا طيّعة تسلس لراكبها وتمضي به إلى غايته ، فيصلها سالماً مطمئناً ، وهذا التّشبيه – في المقابل – يوضح حُسْنَ عاقبة المتّقين .

وتراعي الصّورة منطق الأشياء وترتيبها من خلال ربطها بما يقابلها في الواقع ؛ إذ يكون العقل العنصرَ الرّئيسَ الموجّه ؛ بمعنىً أوضح ، حينما نقرأ قول الإمام عليّ (ع) في وصف المنافقين :"زَرَعُوْا الفُجُوْرَ ، وَسَقَوْهُ الغُرُوْرَ، وَحَصَدُوْا الثُّبُوْرَ"[2] نجد أنّ الزّراعة في منطق الأمور تأتي أوّلاً ، ثمّ تحتاج تلك المزروعات إلى سقاية كي تنتج ثماراً ، يعقب ذلك ، بعد زمنٍ ما ، حصادُ ما تمّت زراعته . وفي القول يجيء وصف المنافقين مطابقاً للترتيب الآنف الذّكر ؛ فالمنافقون أوّل ما يفعلونه هو ممارسة القبائح ، وحينما تطول مدّة إمهالهم يظنّون أنّهم قد سَلِمُوا من العقاب ، فيغترّون ويستمرّون في أفعالهم القبيحة، ثمّ تكون حصيلة زرعهم الهلاك والعَطَب لما اقترفته أيديهم الآثمة، والحصادُ الّذي يكون خاتمة موسم ذلك الزّرع كان وبالاً على زارعيه .

كثرت الخطب الّتي كانت تجعل من ذكر الحيوان غرضاً في ذاته مستقلّاً عمّا سواه ، يصفُ الإمام عليّ من خلالها مختلف أجناس الحيوان ، ويأتي على كلّ جزء من أجزائه ، ولو أنّ الإمام عليّ (ع) كان يرمي من وراء ذلك إلى إظهار عظمة الله تعالى وجليل صنعته في خلقه. وأمثلة ذلك كثيرة جداً أتى فيها على وصف خلق الخفّاش والطّاووس والنّملة والجرادة وغيرها[3].

ولم يقتصر التّعليم على الوصف الواقعيّ الّذي رأيناه في وصف الخفّاش وسواه من حيوانٍ ، بل تمثّل في الموعظة والتّوجيه الّذي أطلقه لرسم معالم سياسة ولاته أو التّعريف بالقيم والفضائل الخيّرة أو التّخويف من اتّباع الشّهوات والغرق في ملذّات الدّنيا ونسيان الآخرة[4]؛ ففي كتابه إلى عامله على مصرَ الأشترِ النّخعيّ نجده يولي اهتماماً بالغاً بالرّعية ، فيوجّه واليَه الجديدَ على أهل مصرَ بما فيه خيرُهم وخيرُه ، إذ يقول :"وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ وَلَا تَكُوْنَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعَاً ضَارِيَاً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ : إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّيْنِ ، وَإِمَّا نَظِيْرٌ لَكَ فِي الخَلْقِ"[5]. يبدو الأمر الّذي يعرض له صاحب النّهج جللاً، استدعى استخدام السبع في هذا الموضع! إذ يشبّه الإمام عليّ (ع) الحاكم الظّالم بالوحش الضّاري الّذي يغير على فريسته تمزيقاً وتقطيعاً ، وأيّ فريسةٍ تلك ؟ إنّها عامّة الشّعب – الرّعيّة الّتي يناط صلاحها بصلاحه، وفسادها بفساده ، فتظهر الحركة الضّدّيّة الّتي تنشأ في عالم الظّلم، العالم الّذي تحكمه شريعة الغاب؛ إذ تتطلب استمراريّة الحياة عملَ كلّ ما من شأنه تحقيق المصالح الشّخصيّة الضّيّقة حتّى لو أدّى الأمر إلى فناء الآخر، فالحياة يقابلها الموت، ولا مكان لخيار ثالث في هذه المعادلة، وبالتّالي يكون بقاء الوحش مرتبطاً بفناء الفريسة، والبقاء للأقوى؛ أي بقاء الحاكم الظالم المستبد، واستمراريّته منوطة بإفقار عامّة النّاس وممارسة الظّلم والاستعلاء عليهم. كلّ ذلك ما كان لِيتحقق لو أنّ التّوجيه الّذي قدمه الإمام عليّ (ع) لواليه كان بكلام مباشر، من قبيل

---

[1] شرح نهج البلاغة 230/1، يُنظر أيضاً 117/1 في الفتن، و 119/1 في ذكر آل بيت رسول الله (ص)، و 193/1 في الشّيطان، و 239/1 في القاضي الجاهل .

[2] السّابق 119/1 ، يُنظر أيضاً 146/9 في العمل.

[3] شرح نهج البلاغة 147/9 ، يُنظر أيضاً 214/9 في خلق الطّاووس، و 44/13 في خلق النّملة، و 52/13 في خلق الجرادة.

[4] يُنظر على سبيل المثال 138/6 في الصّبر ، و 197/6 في الدّنيا .

[5] السّابق 25/17

(لا تظلم رعيّتكَ)؛ إذ لا نجد لهذا الكلام العقليّ المباشر الوقع الّذي نجده في استحضار السّبع، بما توحيه هذه اللّفظة في الذهن من معاني القوّة والجبروت والفتك بالفريسة، وما تثيره في القلب من مشاعرِ الألمِ والرّعبِ والاضطرابِ.

5- المجتمع :

كَثُرَ حديثُ الفلاسفة والمفكّرين وعلماء النّفس في المجتمع، ومن البديهيّ أنّ المجتمع صورة الفرد الكبرى، لذا ينعكس التّعقيد في نفس الفرد على التّعقيد في المجتمع، ولذلك انقسم حديث الباحثين في هذا المنحى قسمين: الأوّل يبحث في النّفس الإنسانيّة واللّاشعور الفرديّ وزعيمه سيغموند فرويد[1]، والآخر يبحث في العقل الاجتماعيّ بكلّ ما فيه من قيم وأعراف وعادات وتقاليد وموروث شعبيّ، وعلى رأس الباحثين في هذا الجانب غارل غوستاف يونغ [2].

ما يهمّنا في بحثنا نحن أنّ الباحثين في هذا المجال ذهبوا إلى "أنّ الإنسان ابن البيئة والوراثة معاً Heredity and Environment بمعنى أنّه المحصّلة النهائيّة لتفاعل Interaction مجموعة العوامل البيئيّة ومجموعة العوامل الوراثيّة"[3]، وبالتّالي تتوزّع العوامل المؤثّرة في سلوك الإنسان بين ما للإنسان من قدرة على تحديده وما لا يدَ له فيه .

ومهما يكن من أمر التّفسيرات السّابقة فإنّ المسلّم به أنّ وجود قاعدة في المجتمع يلزم بالضّرورة وجود رأسِ هرم يوجّه القاعدة ، ويمثّلها، وهي الّتي – من المفترَض – أن تدعمه ، وتسعى إلى رفده بكلّ مقوّمات النّجاح . يتمثّل رأس هذا الهرم في القيادة أو الزّعيم ، أيّا كانت صفته ، سواء أكان زعيم عشيرة أم قبيلة أم رئيس دولة ، وهو ما لم يغفله علم الاجتماع ، شأنه في ذلك شأن القضايا الأُخَر .

يُفترَض في الزّعيم أو القائد أو المسؤول أن يفوق الآخرين بصفاتٍ معيّنةٍ تؤهّله للزّعامة ؛ ولو لم يكن الأمر كذلك لأمكن أن يكون كلّ فرد في المجتمع زعيماً ، القائد أو الزعيم يجب أن يتمتّع بصفات جسميّة وعقليّة ونفسيّة استثنائيّة ، يندر وجودها في غيره ، لقد وصفه أحدهم ، قديماً ، بأنّه "نصف إله"[4] ووصفه آخر بأنّه "الإله الأرضيّ"[5] ، وهذا يشير بوضوحٍ إلى أهميّة الخصائص التي ينبغي أن يمتلكها دون غيره من أبناء المجتمع ؛ ولاسيّما أنّه يمثّل الدّولة المسؤولة عن تأمين حاجات الأفراد وسلامتهم ووضعهم في سفينة النّجاة الّتي تقلّهم إلى برّ الأمان.

وإن عدنا إلى الصّور في نهج البلاغة وجدناها ترتدّ إلى منشأين : الأوّل ذاتيّ داخليّ ، والثّاني جماعيّ [6] يمثّل عقل المجتمع بما فيه من قيم أخلاقية يراها ضامنةً للاستمرار والحياة الكريمة ، وليس المرادُ القيمَ الأخلاقيّةَ المنضوية تحت لواء الدّين ، وإنّما العرف السّائد واللّاشعور الجمعيّ الّذي ينظّم علاقات بيئة اجتماعيّة محدّدة .

ومن الأغراض الّتي توسّلت إليها صور النّهج الاجتماعيّة التّقريعُ والتّعنيفُ ؛ فالإمام عليّ (ع) – وهو الخليفة – ما فتئ يعنّف جنودَه المتقاعسين عن الجهاد ، وإنّ تكرار تقريعهم يُظهر استمرارهم في أفعالهم الّتي تخالف ما جاء به الإسلام من حضّ على الجهاد وطاعةِ الحاكم ، ومرّة أخرى نجد المجتمع مادّة خصبة يستمدّ فيها الإمام عليّ صور التّقريع والتّعنيف ، من ذلك قوله (ع) :"يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ ! حُلُوْمُ الْأَطْفَالِ ، وَعُقُوْلُ رَبَّاتِ الحِجَالِ"[7]؛ فتارةً يعيّرهم

---

[1] يُنظر فرانك ت سيڤرين، علم النّفس الإنسانيّ ،ترجمة د. طلعت منصور و د. عادل عزّالدّين و د. قيولا البيلاوي 1978 مكتبة الأنجلو المصريّة صـ 81 -83

[2] يُنظر كارل يونغ، البنية النّفسيّة عند الإنسان ، ترجمة نهاد خيّاطة ، الطّبعة الأولى، دار الحوار، سوريا اللّاذقية 1997 صـ 9-12

[3] د. عبد الرّحمن العيسويّ، سيكولوجيّة المجرم ، دار الرّاتب الجامعيّة ، بيروت – لبنان 1997 صـ 38

[4] نقولا الحداد، علم الاجتماع ، حياة الهيئة الاجتماعيّة وتطوّرها، دار الرّائد العربيّ ، بيروت – لبنان ، الطّبعة الثّانية ، 1982م ، الجزء الأوّل ، صـ 214

[5] د. محمود السيد أبو النيل، علم النفس الاجتماعيّ ، دراسات عربيّة وعالميّة ، ، سلسلة علم النّفس ، دار النّهضة العربيّة ، بيروت- لبنان لبنان الجزء الأوّل ، الطبعة الرّابعة ، 1985م ،صـ 89

[6] د. عماد عليّ الخطيب، الصّورة الفنّيّة في المنهج الأسطوريّ لدراسة الشّعر الجاهليّ ، صـ 36

[7] شرح نهج البلاغة 61/2

يعيّرهم برجولتهم (يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ !) ، وكما هو معلوم فإنّ العرف السّائد في مجتمع العرب آنذاك يقيم وزناً كبيراً للرّجل ومكانته ؛ فقد يدفع أحدهم حياته ثمّن إثباتها ؛ فيكون اختياره (ع) التشكيك في رجولتهم درجة قصوى من الذّمّ ، لأنّ وقعهُ في نفوسهم سيكون أشدَّ إيلاماً من تذكيرهم بالتّقاعسِ نفسه ، أو على الأقلّ تبصيرهم بقبح أفعالهم .

وتارةً أخرى يسمهم بالجهل وضعف العقل (حُلُوْمُ الْأَطْفَالِ ، وَعُقُوْلُ رَبَّاتِ الحِجَالِ). وفي هذا ازدياداً في وتيرة تعنيفهم وتسخيف آرائهم ، فاستعارته حلوم الأطفال لمن يُفترَضُ أنّهم رجالٌ عودةٌ بهم إلى سطحيّة التفكير وبساطته، كما أنّ استعارة عقول ربّات الحجال لهم غايةٌ في الزّراية والحطّ من شأنهم ؛ ففي غالبيّة مجتمع العرب يُنظر إلى ربّات البيوت نظرة منقوصة ، تقوم على الحطّ من شأنها ، وعدم الاعتداد برأيها ، أو بالأحرى عدم الاعتراف بأنّ لها رأياً ، وهكذا تظلّ المرأة نفسُها حبيسةَ هذه النّظرة الاجتماعيّة ، فتزيدها انغلاقاً وجهلاً ، حتّى يغدوَ الجهل سمةً لصيقةً بتلك الفئة الاجتماعيّة ، ويغدوَ كذلك عرفاً يتربّى عليه أفراد المجتمع في معظمهم . وهذا ما حدا بالإمام عليّ (ع) أن يُطلق تلك النعوتَ والأوصاف انطلاقاً من العُرف الاجتماعيّ السّائد آنذاك .

ثمّ يبلغ التّقريع ذروته حينما يصفهم بالمرأة الحامل الّتي أسقطت ولدها بعدما أتمّت حملها ، ومات زوجها عنها ولم تتزوّج بعدَه ، فورثها الأباعد عنها :"فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالمَرْأَةِ الحَامِلِ ، حَمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ ، وَمَاْتَ قَيِّمُهَا ، وَطَالَ تَأَيُّمُهَا ، وَوَرِثَهَا أَبَعَدُهَا"[1]. ولم يكنِ التّقريعُ في وصفهم بالمرأة الحاملِ ؛ فهذا ليس عيباً في المجتمع ، ولكن ما لا يستسيغه المجتمع في المرأة الحاملِ ، أن يسقط ولدها بعد إتمام حملها ، ثمّ يموت زوجها ولا تتزوّج بعده ، فيكون الميراثُ من نصيب شخصٍ لا يمتُّ بصلةٍ قريبةٍ لتلك المرأة . وهذا هو الخسران بعينه ، وهو حال الجنودِ الّذين يتوجّه الإمام عليّ (ع) إليهم بالتّقريع ، لأنّهم خاضوا حروباً إلى جانب حاكمهم ، وحقّقوا الانتصارات فيها ، ولكن ما إن بقي إلّا القليل ليظفروا بالنّصر الكاملِ حتّى قعدوا عن نصرةِ حاكمهم ، وأضاعوا ثمرة جهدهم السّابق ، ليأتيَ غيرهم فيقطفَ ثمرة جهدهم وتعبهم .

لقد توسّل الإمام عليّ (ع) في هذه الصّورة وغيرها إلى تقريع شديد اللّهجة يُظهر حنقه من قعود جنوده عن نُصرة الحقّ وأداء الواجب[2].

الخاتمة :

بعد كلّ ما تقدّم يمكننا القول إنّ صاحب النهج قد أفاد في صوره من مصادرَ شتّى كانت ملهماً له في التّصوير ، ومساعداً له – أيضاً – في استجلاء مكنونات الإمام عليّ (ع) الفكريّة والنّفسيّة والدّينيّة والوجدانيّة ، كما كانت مُعيناً لنا نحن في فهم الصّور وأبعادها المختلفة ؛ إذ ليس من السّهل تتبّع هذا الكم الهائل من الصّور المفردة أو المركّبة من حيث مصادرها ، ولو أنّه كانت هنالك محاولةٌ لحصر تلك المصادر والمرجعيّات ،ومحاولة تسليط الضّوء عليها واحداً تلو الآخر، وقد فرضت طبيعة المادة المدروسة فرزاً لمصادر الصّورة، إذ يصعب تصوّر وجود صورة تعتمد مصدراً مستقلّاً بذاته ، بل تتآزر مصادر متنوعة في تشكيل الصّورة الفنّيّة وإخراجها إلى العلن ، ولذا يكون فصلها لغاياتٍ درسيّةٍ ، وليتسنّى الوقوف على كلّ مصدرٍ على حدة ، واستجلاء ما يخفي من وظائف وأبعاد مختلفة.

[1] **شرح نهج البلاغة 101/6**
[2] **يُنظر السّابق 89/2**

المصادر :

1. القرآن الكريم .

2. الآمدي، *الموازنة بين الطّائيّين أبي تمّام والبحتريّ*، تحقيق السّيّد أحمد صقر، الجزء الثّاني، دار المعارف، القاهرة – مصر، 1965م، 723.

3. ابن أبي طالب ، عليّ ، *نهج البلاغة* ، شرح ابن أبي الحديد ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ، الأجزاء : الأوّل 299 صفحة، الثّاني 266 صفحة، الخامس 208 صفحات، السّادس 363 صفحة، التّاسع 270 صفحة، العاشر 228 صفحة، الحادي عشر 224 صفحة، الثّالث عشر 251 صفحة، السّابع عشر 223 صفحة، التّاسع عشر 368 صفحة، المركز الثقافيّ اللبنانيّ، بيروت – لبنان .

4. ابن جعفر، قدامة، *نقد الشّعر*، تحقيق س. أ. بونييباكر، مطبعة بريل ، لندن ، 1956م، 93.

5. أبو النيل، محمود السيد، *علم النفس الاجتماعيّ، دراسات عربيّة وعالميّة*، دار النّهضة العربيّة، الجزء الأوّل، الطبعة الرّابعة، بيروت– لبنان، 1985م، 1192.

6. الحداد، نقولا، *علم الاجتماع، حياة الهيئة الاجتماعيّة وتطوّرها*، دار الرّائد العربيّ ، الجزء الأوّل، الطّبعة الثّانية، بيروت – لبنان، 1982م، 360.

7. الخطيب، عماد عليّ، *الصّورة الفنّيّة في المنهج الأسطوريّ لدراسة الشّعر الجاهليّ، دراسة تحليليّة نقديّة*، الطبعة الأولى، مكتبة الكتاني والمكتبة الأدبيّة، 2002م، 348.

8. درو، اليزابيث، *الشّعر كيف نفهمه ونتذوقه*، ترجمة إبراهيم محمّد الشوس – مكتبة منيمنة، ببيروت – لبنان، 1961م، 376.

9. الربّاعي، عبد القادر، *الصّورة الفنّيّة في شعر أبي تمام*، الطبعة الثانية، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت – لبنان، 1999م، 357.

10. سيڤرين، فرانك ت، *علم النّفس الإنسانيّ*، ترجمة د. طلعت منصور و د. عادل عزّ الدّين و د. ڤيولا الببلاوي، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة – مصر، 1978م، 443.

11. العسكريّ، أبو هلال، *كتاب الصناعتين* ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، علي البجاوي، وعيسى الحلبيّ، القاهرة – مصر،1952م، 740.

12. عصفور ، جابر ، *الصّورة الفنّيّة في التّراث النّقديّ والبلاغيّ عند العرب* ، الطّبعة الثّانية ، دار التّنوير للطّباعة والنّشر ، بيروت – لبنان ، 1983م، 406.

13. العلويّ، ابن طباطبا، *عيار الشّعر*، تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض – السعودية، 1985م، 268.

14. العيسويّ، عبد الرّحمن، *سيكولوجيّة المجرم*، دار الرّاتب الجامعيّة ، بيروت – لبنان،1997م، 355.

15. الفارابيّ. أبو نصر، *إحصاء العلوم* ، قدّم له وشرحه وبوّبه الدّكتور عليّ بو ملحم، الطّبعة الأولى، دار ومكتبة الهلال، بيروت – لبنان، 1996م، 94.

16. القيرواني، ابن رشيق، *العمدة في صناعة الشّعر ونقده*، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد – المكتبة التجاريّة، القاهرة – مصر، 1955 م، 1274.

17. الكلينيّ، أبو جعفر محمّد بن يعقوب، *أصول الكافي*، منشورات مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت – لبنان، الطّبعة الأولى، 1426هـ – 2005 م، 866.

18. مبارك، زكي، *النثر الفنّـيّ في القرن الرابع*، الجزء الأول، دار الجيل، بيروت – لبنان، دون تاريخ، 723.

19. محمد، الولي، *الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي*. الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي بيروت– لبنان، 1990م، 306.

20. اليافيّ، د. عبد الكريم، *دراسات فنّيّة في الأدب العربيّ* ، دار السّؤال للطّباعة والنّشر، دمشق – سورية، 1963م، 731.

21. يونغ، كارل، *البنية النّفسيّة عند الإنسان*، ترجمة نهاد خيّاطة ، الطّبعة الأولى، دار الحوار، اللّاذقية – سورية،1997م، 175.